

5

قصص الصحابة

الأم
والفارس الشهيد

سلوى العناني

الأم والفارس الشهيد

(أسماء بنت أبي بكر)

[إن لك بنطاقك هذا نطاقين في الجنة]

صدق يقول الله ﷻ

هذا مشهد لن ينساه التاريخ ، لأنه مشهد يرتفع بالشاعر الإنسانية إلى مستوى يصعب تصديقه .. فهو مشهد للولاء للفكرة ، وللعقيدة ، ومشهد للتضحية ، والشجاعة ، وقدرة الإنسان اللانهائية على العطاء ..

الكلأ : بيت بسيط من بيوت مكة .

الزمان : الثلاثة .. السابع عشر من جمادى الأولى سنة

73 هـ .

أبطال الشهيد : رجل جاور السبعين . وأمه التي شارفت

على الموت ..

الابن يرتدي ثياب الحرب ، ويستعد للخروج إلى معركة يعلم مسبقاً أنه لن يعود منها ، فقد تفرق عنه الصحاب ،



والولده والأهل .. أما الأم فقد كُفَّ بصرها ، وظهرت
عليها علامات السنين إلا أن نوراً خفياً كان ينير وجهها ،
ويضيء كلماتها ..

دخل الابن على أمه يقبل يدها ، ويسألها المشورة .. فماذا
هو فاعل ؟ .. هل يواصل حربه ؟ .. وكفة الخصم راجحة لا
محالة .. فهم الوف مؤلفة ، بينما لم يتبق حوله إلا نفر قليل ..
أم يُسلم هؤلاء الخصوم ، وقد عرضوا عليه أمته ، وسعادته
مقابل تخليه عن قضيته ؟

فماذا تقول الأم في هذه اللحظة .. وهذا ولدها مقبل
على موت محقق ؟!

قالت الأم : (والله يا بني أنت أعلم بنفسك .. إن كنت
تعلم أنك على حق فامض له .. فقد قُتل عليه أصحابك ،
وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت .. أهلك
نفسك ، ومن قُتل معك ، وإن قلت إني على حق ، فلما
وهن أصحابي ضعفت .. فهذا ليس بفعل الأحرار ، ولا
أهل الدين ..) ، والحنى الفارس وقبّل رأس أمه ، وأمسك

كَفَّهَا بَيْنَ كَفَّيْهِ ، وَقَالَ : (هَذَا رَأْيِي لَكُنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَعْلَمَ
رَأْيَكَ ، فَزِدْتَنِي بَصِيرَةً .. فَانظُرِي يَا أُمُّهُ إِنِّي مُقْتُولٌ مِنْ يَوْمِي
هَذَا .. فَلَا يَشْتَدُّ حَزْنُكَ لِأَمْرِ اللَّهِ .. فَإِنَّ ابْنَكَ لَمْ يَتَعَمَّدْ إِتْيَانِ
مَنْكَرٍ ، وَلَا عَمَلَ بِفَاحِشَةٍ ، وَلَمْ يَجْزُرْ فِي حُكْمٍ ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ
ظُلْمَ مُسْلِمٍ ، وَلَا مُعَاهِدٍ) .

ثُمَّ اخْتَنَقَ صَوْتُ الْفَارِسِ ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ،
وَقَالَ : "اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَقُولُ هَذَا تَزْكِيَةً لِنَفْسِي ، وَلَكِنْ
تَعْزِيَةً لَأُمِّي ، لَتَسْلُو عَنِّي" .

حَبَسَتْ الْأُمُّ دُمُوعَهَا ، وَصَمَّتْ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَتْ : (إِنِّي
لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ عِزَائِي فَيْكَ حَسَنًا ، فَاتَخَرَّجْ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَى
مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ أَمْرُكَ) .

عَادَ الْفَارِسُ ، فَقَبَّلَ يَدَيِ أُمِّهِ ، وَرَأْسَهَا ، ثُمَّ عَانَقَهَا .
أَمَّا الْأُمُّ فَقَدْ رَفَعَتْ كَفَّيْهَا ، ضَارِعَةً وَهِيَ تَرْنَدُ : "اللَّهُمَّ
ارْحَمْ طَوْنَ قِيَامِهِ فِي اللَّيْلِ وَظُلْمَهُ فِي الْمَهَاجِرِ ، وَيَرُّهُ بِأَبِيهِ ،
وَبِي .

اللَّهُمَّ قَدْ أَسْلَمْتَهُ لِأَمْرِكَ فِيهِ .. وَرَضِيتُ بِمَا قَضَيْتَ .

فاتنني في وليي عبد الله ، ثواب الشاكرين الصابرين "

التفت الفارسُ إلى أمه وقال :

(اني أخافُ أن يُمثلَ بي بعدَ موتي) .

فرفعت الأم رأسها في شموخ وقالت :

(إن الشاةَ لا يضرُّها سَلْخُها بعدَ ذُبْحِها) .

ربما ظن القارئُ أن هذا مشهدٌ مسرحيٌّ مؤثّرٌ .. لكنه

ليسَ كذلك .. إنما هو مشهدٌ حقيقيٌّ سجله التاريخُ لبطالين

عظيمين.

الأمُ هي أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ بنِ أبي قحافةَ رضي الله

عنهما.

أما الابنُ فهو عبدُ الله بنُ الزُّبيرِ بنِ العوامِ .

كانت (أسماءُ) قد أسلمتْ مع باقي أفرادِ أسرتها بعد

إسلامِ أبيها أبي بكرٍ الصديق - أول من أسلمَ من الرجالِ

- وكانت أسماءُ في هذا الوقتِ ضيئةً في حوالِي السابعةِ

عشرة من عمرها وبعدَ سنواتٍ من إسلامها تزوجتْ

الصحابيَّ الجليلَ الزُّبيرَ بنَ العوامِ ابنَ السيدةِ صفيةَ عمّةِ

النبي الكريم ، وابن شقيق السيلة خديجة زوج النبي عليه السلام ، وأحد السبعة الأوائل الذين دخلوا في دين الله قبل أن يبلغ الخامسة عشرة من عمره .. وهو الذي قال عنه رسول الله : " إن لكل نبي حواريًا ، وحواري الزبير بن العوام " .

وعاشت السيلة (اسماء) مع زوجها (الزبير) في مكة شهرًا قليلة حتى أذن الرسول لأصحابه بالهجرة إلى المدينة في مجموعات صغيرة .. وفي إحدى هذه المجموعات غادر (الزبير بن العوام) مكة إلى المدينة مهاجرًا في سبيل الله ، وترك زوجته (اسماء) في شهر حملها الأخيرة . وأذن الله للرسول بالهجرة ، فأتجه إلى بيت صديقه (أبي بكر) الذي كان جاهزًا للرحيل ، ينتظر إذن النبي .. فأنبهه أن الساعة قد حانت ، وأنه يمكنهما الرحيل .

غادر (أبو بكر) بيته مهاجرًا مع النبي ، وقد حمل معه كل ما كان له من مال (خمس ألف درهم) ، وترك وراءه زوجته وابنتيه عائشة واسماء ، وولده عبد الله بن أبي بكر .

اتجه النبي، وصاحبه الكريم إلى (غار ثور) حيث قضيا
ثلاثَ ليلٍ، يزورهما كل مساءً (عبدُ الله بنُ أبي بكرٍ)
حاملًا معه أخبارَ قريشٍ، وبعضَ الطعامِ، ويتبعه مولاهم
(عمارُ بنُ فهيرة) الذي كان يرعى إبلَ أبي بكرٍ، فيحلبُ
الشبَّةَ، ويسقي النبي وصاحبه لبنها، ثم يتبعُ عبدُ الله في
طريقِ العودة، فتخفى الأغنامُ آثارَ الأقدامِ البشرية، إمعانًا
في التمويه ..

وفي الليلةِ الثالثةِ قامتْ (اسماءُ) - رغمَ ثقلِ حملِها
فأعدتْ زادَ السفرِ للنبيِّ الكريمِ، وصاحبه .. فكيفَ تَضَعُ
الماءَ والطعامَ على ظَهِرِ الراحلةِ؟ ..

احتارتْ (اسماءُ) قليلًا ثم فَكَّتْ نَطاقَها، وشقته فربطتْ
وسطها بنصفه، وعلقتْ طعامَ المهاجرينِ وشرابَهُما في
النصفِ الآخرِ ..

ولما رأى الرسولُ ما صنعتْ (اسماءُ) ابتسمَ لذكائها،
وعطاها، وبشرها قائلاً :

"إن لك بنطاقك هذا نِطاقَيْنِ في الجنةِ "

ومن يومها سُمِّيَتْ (اسماءُ) بِذَاتِ الْيُنَاقِيْنِ (١).

وباني (أبو قحافة) والدُ (أبي بكر) - وكان لم يدخل
الإسلام بعدُ - ليزورَ أحفاده بعد أن عَلِمَ بهجرة ابنه مع
الرسولِ إلى المدينة. وسألهم عما تركه لهم أبوه من مالٍ ..
وتسرَّعُ اسماءُ ، فتجمعُ بعضَ الحَصَى ، وتضعُه حيثُ كان
أبوها يحفظُ ماله ، وتغطيه ببعضِ الثيابِ ثم تأتي بجُذِّها -
وكان كُفَيْفًا - فتضعُ يده فوقَ الحَصَى ، فيَحْسِبُه الشيخُ
مالا ..

لقد عَزَّ على اسماءَ أن يَسْمَتَ جُذُّها فيهم وهو الذي
قل : (والله إني لأراكم قد فُجِعْتُمْ بِماله مع نفسه ..) .
وكان ذكاءُ اسماءَ ، وسرعةُ بديهتها أقوى من شماتة هذا
الجذِّ .. فأقنعتهُ بأن والدهم قد تركَ لهم خيراً كثيراً .. وهذا
حقُّ .. فقد ترك لهم رِضًا الله ورسوله ..

وأيد الله نبيه ، وصاحبه ، وأعانهما على سَفَرِهما ووَصَلَا
سَلِيلَينِ إلى المدينة ..

(١) النطاق : حزام تربطه المرأة على وسطها تسند به ظهرها وترفع به أطراف ثوبها .

ولما استقر بهما المقام أرسل أبو بكر إلى ولده أن يأتي ،
ومعه اخته (أسماء) ، و(عائشة) وزوجة أبيه (أم رومان)
وتحمل أسماء مشقة الرحيل وقد أوشكت أن تنم أيام
حملها .. يا لها من رحلة شاقة يعلم الله وحده كم عانت
(أسماء) أثناءها .

وفي (قباء) على مشارف المدينة المنورة نزلت (أسماء)
حيث جاءها المخاض .. ورزقها الله بصبي جميل ، وكم كانت
فرحة المسلمين في المدينة بهذا الوليد فأُسميه هي (أسماء بنت
أبي بكر) ، وأبوه (الزبير بن العوام) أحد السبعة الأوائل
الذين سارعوا إلى الإسلام .

يا له من طفل كريم النسب ..

وكانت ولادة هذا الطفل بالمدينة رقاً حاسماً على اليهود
الذين أشاعوا أنهم سحرُوا نساء المسلمين ، ليُصْبَنَ
بالعقم ، فلا يُؤَلَّدَ لَهُنَّ طفلٌ بالمدينة ..

وحمل المسلمون الطفل إلى الرسول ، فباركته ، وسمه (عبد
الله) .. عبد الله بن الزبير بن العوام .. وبعد عبد الله رزقت

أسماء بالبنين : عروّة ، والمنذر ، وعاصم ، والمهاجر ..
وبالبنات : عائشة ، وأم الحسن ، وخديجة ..

كان الزبيرُ زوجُ أسماءَ فقيراً لا يملكُ من متاع الدنيا إلا
فرسه .. فكان على أسماء أن تقومَ بكلِّ واجباتِ الزوجةِ
والأم .. ترعى أبناءها وزوجها ، وتعلفُ الفرسَ ، وتسقيه ،
وتعجنُ العجينَ ..

تروى (أسماء) عن نفسها .. "لم أكن أحسنَ الخبزِ ..
فكانت تخبِزُ لي جاراتُ من الأنصارِ " .

يا لها من إنسانةٍ بسيطةٍ صريحةٍ .. لم تغفلُ من الاعترافِ
بأنها لم تكن تتقن (الخبزَ) .. ويا لها من صورةٍ رائعةٍ من
صورِ التكافلِ، والتعاونِ . فيها هن نساءُ الأنصارِ من
جاراتها يساعدنّها على ما لم تكن تتقنه ..

ولما عَرِفَ الأبُ (أبو بكر) بما تعانيه ابنته أرسل لها خادماً
تساعدّها ..

لكن حلّ الزبير لم يستمر طويلاً على هذا ، فقد شارك
في الفتوحات ، والغزوات ، ونالَ نصيبه من الغنائم ، وفتحَ

الله عليه وأظن (أسماء) استراحت بعد هذا .. فهي لم تخلق
لهذا التعب.. لكنها تحملت مسئوليتها كزوجة ، وأم على
الحسن وجه .

ونقلب الأوراق ، ونقرأ عن (أسماء) صفحات مشرقة ..
فقد كانت من أفقه صحابيات رسول الله صلى الله عليه
وسلم .. أخذت عن أبيها حسن الخلق ، ورأى السلوك ،
وصحيح التقوى .. وهي نموذج في الكرم ، والجود ، والذكاء ،
والشجاعة ..

ومن خلال شقيقتها (عائشة) أم المؤمنين تعلمت (أسماء)
الكثير عن فقه دينها .. وكانت تنقل ما تحجل أن تنطق به
أمام الرسول إلى (عائشة) التي تأتيها بالإجابة .. وأضحت
(أسماء) موسوعة في السنة النبوية خاصة في أمور (النساء) ..
وكانت راوية للحديث ، أخذ عنها كثير من الرواة ، أهل
الثقة .

ونغضي الأيام بالكرامة بنت الكريم (أسماء بنت أبي
بكر) وتشهد وفاة النبي ، ثم وفاة أبي بكر ، ومن بعده

عمر ، ثم عثمان ، وعلي ، وتنتقل لتعيش مع ابنها البكر
(عبد الله بن الزبير بن العوام) الذي اختاره المسلمون
خليفة لهم بعد وفاة يزيد بن معاوية .. وتقلَّ عبد الله مقرَّ
الخلافة إلى مكة المكرمة بعد أن كان يزيد بن معاوية قد
جعل هذه العاصمة في دمشق إبَّان خلافته ، وتشنَّ عصا
المسلمين.. فيها هو (مروان بن الحكم) يعلن نفسه خليفة
على الشام .. ويخلقه ابنته (عبد الملك بن مروان) ويعلنون
رفضهم لخلافة (عبد الله بن الزبير) .. وتتوالى الحروب .

ويتقسم المسلمون .. ويتبع بعضهم خليفة دمشق ويتبع
الآخرون خليفة مكة ، وتندور المعارك ، وتتداخل المؤامرات
لتكون ضدَّ الشجاعة .. وتتعلدُّ هزائم (عبد الله بن الزبير)
حتى يأتي اليوم الحاسم .

الثلاثة .. السابع عشر من جمادى الأولى سنة 73 هـ

هذا اليوم الذي شهدَ مَصْرَعُ عبد الله بن الزبير بعد
معركة قصيرة ضِدَّ (الحجاج بن يوسف الثقفي) الذي
قَتَلَهُ ، وعلَّقَ جثته في العراء ، ثم فصلَ رأسه ، وبعثَ بها

إلى مولاه (عبد الملك بن مروان) .

ويقف الحجاج (قائل عبد الله) أمام أسماء (أم عبد الله)

محاولاً استرضاءها .. فلماذا تقول هذه الأم العظيمة؟

قالت (أسماء) : "لقد أنفدت على ابني ذنياه وأنفدت هو

عليك آخرتك .. ولا ضرر أن أكرمه الله على يدك (شهيداً)

فقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغني من بغايا بني

إسرائيل " .

يا لروعة التشبيه .. لقد أهدى رأس ابنها (الورع التقى

الصلح) إلى (عبد الملك بن مروان) كما أهدى رأس النبي

(يحيى بن زكريا) إلى عاهرة ضائعة من بني إسرائيل هي

(سالومي) .

هكذا احتقرت (أسماء) هذا الطاغية (الحجاج بن يوسف

الثقفي) الذي أسل الدماء على الأرض الحرام في (مكة)

ومتع المسلمين أن يؤدوا فريضة الحج في هذا العام .

وصيرت الأم العظيمة على ابنها - ذلك المصلوب في

العرَاء بغير رأس - لما يقرب من شهر .. ثم أنزلته ، وكففته

وَصَلَّتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ دَفَنَتْهُ .

يَا لها من أم عظيمة رائعة ..

كانت (أسماء) في هذه الفترة قد نالَتْ المِنَّةَ من عُمْرِهَا ..

وما هي إلا أيام .. ولحقت (أسماء) بابنتها .. كرميْنِ يلتقيان

عند خالقيهما ، يكفي أن نذكر (عبد الله بن الزبير) موقفه

يوم معركة (إفريقية) .. عندما واجه جيشُ المسلمين -

عشرون ألف مقاتل - جيش البربر - مائة ألف وعشرين

ألف مقاتل ..

والناظرُ لطرفي الصراع يومها لابد أن يشفقَ لحالِ

المسلمين لكن (عبد الله بن الزبير) كان ضمن الجيش ..

واستطاع بذكائه أن يدرك سِرَّ قوةِ عدوه .. لقد وجَّدها في

قائليهم - ملك البربر - الذي كانت صيحاته تشعلُ

الحماسَ في قوايته فيستमितون في قتالهم ..

ورغم الموقع الحصين الذي كان يقفُ فيه ملك البربر ..

إلا أن شجاعةَ ابنِ الزبير جعلته ينسى الهولَ الذي ألمَّه

ويتدفَّعُ كالسهم بعد أن قلَّ لإخوانه من حوله :

(احموا ظهري واهجموا معي) ..

وكانه قذيفةً انطلقت إلى هدفها .. شقَّ الصفوفَ واتجه
إلى رأسِ الملكِ فأطاحَ بها .. ثم ألقتْ إلى الحراسِ الذين
كانوا حوله فصرعهم جميعاً وانطلقت صيحته : الله أكبر ..

هذا هو (عبد الله بن الزبير) مقاتلاً في سبيل إعلاء شأنِ
الإسلام أما (ابنُ الزبير) المؤمنُ التقى .. فهو كما قال عنه
ابنُ عباس رضي الله عنه : (كان قارئاً لكتابِ الله ، متبعاً
سنةَ رسوله .. قاتناً لله .. صائماً في الهواجرِ من غفلةِ الله ..
ابن حواري رسولِ الله .. وأمه أحملة بنتُ الصديقِ وخالته
(عائشة) زوجةُ رسولِ الله .. فلا يجهلُ حقَّه إلا مَنْ أعمى
الله) .

عليك رضوانُ الله يا عبدَ الله وعلى أمك أحملة ، فقد
كتبتما في كتابِ التضحية والصمود والشجاعة ، والتقوى ..
صفحاتٍ لن يطويها التاريخُ أبداً !!